

من الديكتاتورية (الناصرية) النزيهة إلى القرصانية (الأسدية) اللصوصية 2 – Middle East Transparent

من الديكتاتورية (الناصرية) النزيهة إلى القرصانية (الأسدية) اللصوصية 2

السبت 12 حزيران (يونيو) 2010

هذه الحلقة الثانية من النص الكامل للمحاضرة التي ألقاها المفكر السوري الدكتور عبد الرزاق عيد في باريس بدعوة من لجنة إعلان دمشق في فرنسا تحت عنوان عوائق الديمقراطية في العالم العربي (سوريا نموذجاً) (2)

*

ما هي العوائق التي تقف حائلاً دون الانتقال إلى الديمقراطية في بلادنا إذن؟

لا شك أننا سنسارع إلى الإجابة دون كبير عناء، وهي أن هذا العائق قائم أمامنا صريحاً ظاهراً صلداً كجدار وهو جدار النظام العربي المتعول والأشد شراسة في العالم، ولعل شرسته تتأتى من واقع أنه يستحوذ استحواداً مطلقاً على بلاده، مما لا يمكن له تخيل أن يعيش بدون هذه الأملاك (الأوطان) التي راح يستشعر أنها مخادعه الداخلية... فخسارة السلطة هي خسارة للذات بعد أن توحدت مع الأشياء التي يمثلها لهم الوطن كملكية شخصية... هذا الأمر ينطبق في كل الأحوال - على الديكتاتور المحترم الذي لا يسرق من بلاده بعد أن تماهى معها أو تماهت معه، فراح يعتبرها بكليتها ملكيته الشخصية كنماذج مثل ستالين - هتلر - ماو تسي تونغ، وإسلاميا الخميني، وعربياً جمال عبد الناصر... فهؤلاء جميعاً لم يسرقوا من بلادهم، وغادروها لا لهم ولا عليهم وفق النموذج (الخطابي)، نسبة إلى عمر بن الخطاب صاحب هذا القول الشهير: "أن أخرج من هذه الدنيا لا لي ولا علي"، لكن باستثناء جمال عبد الناصر عربياً، فإن كل الديكتاتوريين الذين عرفهم العالم العربي بعده من نوع اللص الصغير الذي في صورة قرصان مريض مزمن بالجوع والنهم، فهو لا يشبع لأن جوعه بلا قرار، لن نتحدث عن نماذج مثل صدام حسين والقذافي ما دام موضوعنا (النموذج السوري)، فقد سبق لنا أن تحدثنا عن أحد القادة الأمتيين الذي رد على سماه مبالغات المعارضة السورية في الحديث عن النهب (الأسدي) لسوريا، بأن برأ حافظ الأسد قائلاً: بأن ثرواته في البنوك الخارجية لا تتجاوز (8) مليارات دولار، وأنه لا علاقة له بمليارات ابنه (الشهيد باسل)، ولا بمليارات أخيه (القائد رفعت)، أو أخيه البرلماني شيخ جماعة المرتضى (الأستاذ جميل)، أو شيخ الجبل... وآخر شيخ السهل وشيخ البحر وشيخ الأرض وشيخ السماء وشيخ المعلوماتية... ومن الأهم من الأقربين من شيوخ الكومبيوتر والنت... ويتساءل مصدر هذه المعلومات ماذا تنتظرون وتوهمون؟ هل تصدقون أن يقتنع هؤلاء منكم بالتداول السلمي للسلطة واللجوء إلى صندوق الاقتراع والقبول بحكم الأغلبية الانتخابية؟

على كل حال فقد أجاب على هذا السؤال كبير الموظفين الإداريين الذي يشتغل لدى المؤسسة العسكرية (الأسدية) بمرتبة موظف وزير دفاع كعماد البناشين قائلاً: "أنهم حصلوا على السلطة بالبندقية ولن يسلموها إلا بالبندقية...!!!)، فقطعت جبهة قول كل خطيب!

إذا لنتقل إلى السؤال الأصعب، وهو سؤال موقف المجتمع والنخبة تجاه هذه الديكتاتورية القرصانية المافيوية الصريحة... التي لا يتردد الكثيرون من ممثلي نخب السياسة والمجتمع أن يصفونها بالوطنية والمقاومة والممانعة والصمود والتصدي...! حيث يكفي أن يكون في المجتمع السوري قوى سياسية يفترض أنها معارضة، ولكنها ترى أن نظامها صامد ومقاوم وهي تلتقي معه على أن ذلك هو أولى الأولويات لكي يطرح السؤال حول مدى حضور الديمقراطية في نسج البنية السياسية العربية والسورية بخاصة لكونها تعتقد - والأمر كذلك - إن الاغتصاب الخارجي وحده المرفوض بينما يمكن قبول الاغتصاب الداخلي ما دام المغتصب يجأ بالصوت أنه يدافع عن الشرف خارجياً...! وكأن اغتصاب الداخل ضرورة للمغتصب لكي يقاوم اغتصاب الخارج، حيث ربما أن أصوات

الاحتجاج على الاغتصاب الداخلي تشوش على الممانع والمقاوم تتمعه باغتصابه، حيث تحول دون انتعاضات تمنعه ومقاومته فلا صوت يعلو فوق صوت المعركة... ولهذا لم يصدر أي صوت بالاحتجاج والرفض والإدانة من قبل القوى الديمقراطية في سوريا عند "غزوة بيروت"، إلا مجرد احتجاجات ثقافية فردية مثلما فعلنا، " فحزب الله حزب مقاوم فمن حقه أن يغتصب أهله ليتمكن من المقاومة ...

هذا ليس احتيالا والتفافا حول المفاهيم الديمقراطية الحديثة بل هي تتعارض مع البدايات التي يختزنها اللاشعور الثقافي الجماعي للبشر، فنحن لسنا بحاجة للحفر الأركيولوجي للبحث عن النماذج البدئية في الثقافة الإنسانية، للقول: إن النموذج البدئي للمحرم يبدأ مع المحرم الأهلي... وأن الاغتصاب الخارجي يمكن أن يكون له حلول: إما الحرب ضد المعتصب لطرده واستعادة السببا، أو السلام (الزواج) ومن ثم سقوط معنى الاغتصاب... أما الاغتصاب الداخلي فقد سمته كل الشرائع السماوية والأرضية بأنه (زنى المحارم)، وهولا حل له لا بالحرب ولا بالسلم فهو (لعنة)... فلننتصو درجة اللعنة التي تلحق بكيانيتنا العربية والسورية أمام حالة الاغتصاب الشامل...!

وقد كان قد سبق لنا من قبل أن تحدثنا عن سوريا (الملعونة)، استنادا إلى الحديث الشريف (لعن الله الراشي والمرتشي)، حيث لا يوجد في سوريا فرد واحد لم يرش أو يرتشي... حيث يمكن القول: إن لعنة الفساد هذه إنما ترضع من صدر لعنة الاستبداد، الذي يؤسس على ثقافة الخطيئة (اغتصاب المحارم)... ولهذا علينا عندما نسمع الشاعر طرفة بن العبد يقول:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة... على النفس من وقع الحسام المهند

أن لا نتوقف عند حدود اعتبار قول (طرفة) هذا مجرد قول شعري جميل، وليس هو مجرد مثل وأمثولة وحكمة، بل هو صوت الجرح الغائر في أعماق التجربة الإنسانية العربية الذي لم يندمل بل يزداد اتساعا ونزيرا وصديدا...

وربما يفسر عمق هذا الجرح أننا لا نزال حتى الآن نتحدث عن السلطة بوصفها العائق الوحيد للديموقراطية ومن ثم تأجيل الحديث عن العوامل الثقافية والاجتماعية والتاريخية... إذ أن هذه السلطة التي سبق ل(سمير أمين) أن وصفها ب(الصنم) الذي لا يشرب خمرة المقدسة إلا بجمام الضحايا وفق التعبير المجازي لماركس، فهي بسبب تشبثها الدموي وتغولها ورفضها المستميت للآخر جعلت المعارضة السورية خلال نصف قرن على دين سلطانها تأتمر بأمره وتصعد لرأيه الهابط من أعلى ايدولوجيا وسياسيا وذلك هو الجزء الذي ألحقته ببطانتها الفاسدة تحت اسم (الجهة الوطنية التقدمية)، أما الجزء الآخر الذي رفض الانصياع للجهة (الأسدية)، فقد قضى حياته في السجون نبلا ونزاهة وشجاعة، لكنه لم يتمكن من القطع المعرفي (الابستمولوجي) مع إشكاليته القائمة على اغتصاب الداخل (المحارم) في خدمة الإدعاء بممانعة الاغتصاب الخارجي، دون التساؤل الجوهرية حول امكانية معتصب الداخل أن يقاوم اغتصاب الخارج، وهل يمكن لمن دمر الاغتصاب عالمه الداخلي والقيمي والأخلاقي والوجداني أن يقف على أقدام كرامته المهذمة لينافع عن الكرامة الوطنية والقومية...!! تلك الإستراتيجية لتعميم التغول السلطوي الطغياني والايديولوجي الإكراهي والبسيكولوجي الاغتصابي يروم تحطيم البدايات حتى ولو كانت بدايات أهلية انثربولوجية تكشف عن أولوية رفض الاغتصاب الداخلي على الاغتصاب الخارجي بوصفها ثقافة الفطرة الإنسانية، إذ عندما يستباح الشرف داخليا لن تقوم للإنسان قائمة للدفاع عن شرف مستباح بالأصل، ولن نتحدث عن دروس الهزائم العربية أمام الخارج كثمرة لهزائمها الداخلية، ولن يكون سقوط بغداد آخر الأمثلة للبرهنة على أن الاغتصاب الداخلي لا يمكن إلا وأن يكون مدخلا وجسرا وتوطئة للاغتصاب الخارجي...

لكن-مع ذلك- فإن الضرورة البحثية والعلمية تفترض بنا أن نشير إلى العوامل الأخرى ومذاهبها وفق تداولها في النصوص العربية:

طبعاً يطيب للكثيرين من النخب أن يتحدثوا عن العوامل الثقافية ليرجوا أنفسهم من وجع السؤال والمواجهة مع الاستبداد وأنظمة الطغيان القائمة والدائمة، فيتم الحديث عن ما سماه ماركس بـ"نموذج الاستبداد الآسيوي"، أو الاستبداد الشرقي ومن ثم الاستبداد العربي، حيث تعارض الهوية البدوية مع قيم الحرية والحدانة والديموقراطية، ومن ثم تقديم النماذج عن إسلام للعنف يقوم على مبدأ التبشير والجهاد، في صورة إسلام سياسي لا يزال يسوقه حتى المعتدلون منهم كالشيخ د. القرضاوي، إذ يعرف الإسلام بأنه (مصحف وسيف)، بما يمكن أن يعني أن الذي لا يفهم بلغة المصحف سيفهم بلغة السيف...!

وهي فكرة إستشراقية ظلت تسوق منذ أطروحة غوستاف لوبون المعروف—مع ذلك—بصدافته للعرب حيث يقول (إن سيوف العرب لا بد أن تكون مشهورة، فإذا لم توجه إلى الغير فإنها توجه للنفس"، وصولاً لباحث فرنسي شاب جيل كيبيل يصدر كتاباً تحت عنوان (فتنة) يرى أن الإسلام يتأرجح بين نمطين من الجهاد: جهاد عنف موجه ضد الآخر الخارجي، أو جهاد "الفتنة" حيث العنف بين أجزاء الأمة ذاتها"، وتلك هي الفكرة ذاتها التي عبر عنها (البابا) بحديثه عن التلازم التاريخي بين الإسلام والحرب (العنف)، فنبهنا إلى خطورتها بعد أن كنا نتباهى بها ونفاخر بأننا من خصوصياتنا، حيث بالتناظر كنا نلغي نضالياً كل تراث الفردانية التذوقية الشخصية الناعمة للتراث الصوفي المؤسس على الابتهاج والتضرع (خفية وخيفة) وليس تبشيراً ووعظاً وإكراها وإرغاماً بحد السيف "ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين" (الأعراف 55)، لنلاحظ أن (التضرع) يشترط (الخفية والخيفة) وإلا كان (عدواناً)، والخيفة هنا هي مخافة الله وليس تخويف خلقه... حيث سيرد في الذكر الحكيم: "واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالعدو والآصال" (الأعراف 205)، هؤلاء "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين"، هذه المعاني الفيضانية من نهر الكوثر الإلهي، أتى البابا لينسبها إلى ميراثه ناسياً أو متناسياً التاريخ الصليبي، في حين أن هذه المعاني هي ثمرة روحانية الصوفية الإسلامية في الماضي والحدائث الغربية في الحاضر، حيث الفردانية الروحانية الشخصية معادل لمفهوم (الفردية) كنواة مفهومية فلسفية أساسية لمعنى المواطنة في العصر الديمقراطي الحديث، التي تكيفت الكنيسة معها من خلال نهضة الفنون والآداب والتشكيل والموسيقى، حيث (الفردية السوسولوجية) للحدائث استعدها (الفردانية الروحانية) الشخصية في ممارسة حرية التفكير والتعبير والديانة والعبادة.

في حين أن الخصوصية الاستبدادية سيتولى شأنها بحماية عقائدية (قوموية) شديدة مثقفو السلطة في سوريا الذين عايشوا الثقافة الغربية والحفريات في الميدان الأنثروبولوجي، مما أتاح لهم صياغة أدلوجة تسلطية توضع في خدمة النظام السوري، وأول من اشتغل عليها المثقف الأمني، حيث دفعوا بمقولة الخصوصية إلى الحد أن راحوا يترافعون عن (خصوصيتنا الديمقراطية) العربية، فكان علينا أن نعتبر (الأسدية) نسختنا الخصوصية عن الديمقراطية في سوريا، سيما بعد إنجازاتها (العلمانية الثورية) في حماة، وفي أواخر الثمانينات مع (البيريسترويك) السوفيتية، سيتحدثون عن سبق البيريسترويك (الأسدية) على بيريسترويك غورباتشوف، وذلك من خلال الحركة التصحيحية التي أطلقت التعددية الحزبية، ودفعت بحكم الحزب الواحد—المثبت بوحدانيته دستورياً—باتجاه التعددية الحزبية في صيغة (الجهة الوطنية التقدمية) كما كانت صناجة الإعلام البعثي تنفخ في رثة صنمها المصنوع من القش الذي ستذوره الرياح ما أن سيدوب كهنة ايديولوجيا الملح...!!

وبطبيعة الحال—والأمر كذلك—سيكون هناك نسخة (قذافية وصدامية) عن هذه الخصوصية الديمقراطية العربية...

ستأتي المدارس البنوية والألسنية المؤسسة على الوضعية المنطقية استمولوجيا للحديث عن ضعف الثقافة الديمقراطية مجتمعياً من خلال الحديث عن ضعف النسيج العقلاني في ثقافتنا السياسية من خلال ما سيسميه الراحل محمد عابد الجابري بأن الخطاب العربي المعاصر "هو خطاب وجدان لا خطاب عقل"، وهذا مما سيساعد على نمو وعي شعبي يعلي من شأن الأنا الغنائية الجمعية العاطفية المشاعرية التي تحل الرغبات محل الواقع على حساب العقلانية وإدراك منطوق الواقع دون أن يأكل التشبيه المشبه حسب الياس مرقص، حيث الخطاب البياني القومي البلاغي يحل—حسب الأسلوبيين—الغائب (الهنالك) محل الشاهد (ألها) حسب تعبير الأنروب غرييه، هذه الرغبة الذاتية تعتمد الشلف التأويلي العاجز عن إنتاج وعي مطابق في الواقع حسب ياسين الحافظ.

كل ذلك سيحيل دون تبلور وعي بدور الفرد (الديك)، الذي يمكن له أن يستشعر كيانيته (البروميثيوية) المتمردة التي تؤسس لوعي إشكالي عصياني بالواقع والثقافة، وذلك لصالح ولادة (الكائن الدودة) المسحوقة، حيث الفرد الرع المشبع بثقافة الخوف والإقصاء والإخفاء...

في مقابله وعلى أنقاضه ستأسس صورة الفعالية (الجماهيرية)، حيث ما سمي بعصر (الجماهير) التي تفتدي القائد بالروح والدم، إذ بدأت هذه (الجماهيرية) قطيعة حميمية عفوية وصادقة في لحظة ولادتها (الناصرية) التي استبدلت (جماهيريا) مبدأ (الانتخابات) بمبدأ (الاستفتاء)، لكنها تحولت إلى طقسية كاذبة وزائفة مرتعشة الكيان خوفاً وسحقاً وإذلالاً مع متناسخي ومماسخي الناصرية في الصورة والهيئة (الأسدية—الصدامية—القذافية... الخ)، حيث الدستور السوري (الأسدي) 1973، يتحدث عن الانتخابات والاستفتاءات بمعنى واحد، وهذا ما تحقق فعلياً على الأرض من خلال الصلاحيات الأسدية المطلقة التي كرست دستورية الملكية الأسدية لسوريا، قبل تطويعها فقهاً من قبل حزب الله بوصفها (سوريا الأسد).

mr_glory@hotmail.com

* كاتب سوري- فرنسا

http://www.mettransparent.com/spip.php?page=article&id_article=10083&lang=ar عوائق الديمقراطية في العالم العربي: سوريا نموذجاً (1)